

صـلات علمية

دين مصر والشام

في النصف الأول من القرن الثامن الهجري

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

طلع هلال المحرم من القرن الثامن الهجري على العالم العربي بأحداث جسام :- وسلطان المالك في مصر هو الناصر ابن قلاوون ، ونائب مصر الأمير سيف الدين سلاار ؛ ونائب الشام آقوش الأنتم ؛ ونائب حماة قراستقر المنصوري بعد موت الملك الظفر

وكان التتار في أواخر القرن السابع الهجري قد أغاروا على الشام مرتين فدهم ببيرس على أعقابهم . وفي سنة ٧٠٠ هـ أي في مستهل القرن الجديد أغاروا ثانية على الشام بقيادة قازان وأحرقوا بها الحرمات وكثر عبيثهم فيها وقتلوا وسبوا النساء واقتحموا على الداس المساجد ، يحطمون أبوابها ويحاربون الله فيها ...

الرضى من الوصف ، ثم ينتقل بعدها إلى ما يريده من أغراض قومية ، فيسائل أين معالي الإيوان الجملة وأين حماة الأفيح وأين رجاله الذين غلبوا الناس :

أين لا أين المعالي جمة والحي أفيح والرأي مفارا ورجال شدخت أوضاعهم غلبوا الأعناق منك وإسارا فيجيب عن ذلك بجواب تنجلي فيه نزعة القومية ، وروحه الإسلامية واضحة جليلة :

عمروا لم يعلموا أن لنا جازر الأمر عليهم والإمارا ثم هو يشير إلى ما كانت عليه الأمم المجاورة للعرب من النظر إليهم نظر الاستهانة وقلة الاكتراث غير عالة بما وراء هذا الممود من الاندفاع المعجيب ، ولا حاسبة بأن تلك الأمة الممزقة ترى المقطعة الأوصال ستهب هب ندهش الدنيا :

قدروا كجد نزار واقفا ومشي الجد فما عزوا نزارا ثم يصف الوثبة العربية العظيمة وما رافقتها من بطولات وتضحيات وكيف أذهلت الناس فتمتوا لها مستسلمين

وهنا يقف علماء الشام موقفا رائعا ، فيحرضون الناس على الدفاع ، وينظرون شزرا إلى ذهب التتار وفنهم اللامعة ؛ ويقف رجل منهم جليل هو ابن نيمية مملكا ان أهل الشام لا يسلمونها إلى عدو الله ما دامت فيهم عين تطرف ؛ ويرسل إلى نائب قلعة دمشق يقول له : لا تسلمهم القلعة ولو لم يبق فيها إلا حجر واحد . ويستجيب المسلمون إلى صوت شيخ العلماء فيقفون صفا واحدا ، حتى يكرهوا العدو على الرحيل ويطهروا البلاد من أرجاسه

وكان ابن نيمية هذا يقطعا مقننها لأحداث زمانه ، وليست فيه غفلة بعض الفقهاء ، ولكنه رجل صاحي العين والفؤاد . وكيف ينأى والعدو على أبواب دمشق ؟ فهو يقضي الليل قائما يحضض الناس على الصبر ؛ ويدور كل ليلة على أسوار دمشق يحرض الناس على الثبات ويتلو عليهم آيات الجهاد والرياء وليس بمنينا من القرن الثامن أحداثه السياسية ، فذلك ليس موضوع البحث ، ولكن بعينا حالة العلماء والفقهاء فيه فقد ظهرت بين القطرين الشقيقين في ذلك العهد مشاركة في مناصب العلم والوعظ والقضاء ، وكان كثير من علماء مصر يعيشون في الديار الشامية ؛ كما أن كثيرا من علماء الشام

لا وذا لما رأوا من دونهم واديا باقى به السيل غمارا عابوا القرب ديرا كافي الطلي يمجل القارس والطمع بدارا ثم يشبه العرب بالأسديهم مصحرا بمد طول الخور : أحمر اللبث العفوني فأنثى يطلب البربوع في الأرض وجارا وبمد هذا الاعتزاز بقومه والتفاخر بأمتة يتحدث عما أفضت إليه نهضة العرب وعن رسالتهم الإسلامية التي حملوها إلى الآفاق تجلو دياجير الشرك وتمحو معالم الوثنية وتنشر التوحيد حيث حلت :

قهرروا الشرك على أعقاباه بعد ما استخدم غيا وضرارا وأناروا الدين من مريضه وأطاردوا عن مجاليه الخمارا دابنوا المجد بأطراف القنا فندا عينا وقد كان ضمارا

وهكذا ترى أن موقف الرضى على الإيوان غير موقف البحترى ؛ فإن الإيوان أنار من البحترى شاعريته ، ولكنه في الرضى أنار قوميته .

م- من الأوصاف

يعينون في مصر . وكان أحرار العلماء - وأعني بهم غير الموظفين - يجوبون بين البلاد العربية وينقلون بين القطرين فيند الطلاب لقائهم والانتفاع بعلمهم والاعتراف من مناهلهم . والأمثلة على هذا كثيرة وقد تكفلت بسردها كتب التاريخ وخاصة كتب السلوك المعريزي والبداية والنهاية لابن كثير والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى

فترى مثلاً أن أحمد بن سلامة الأسكندري المصري بعين قاضياً لدمشق ، ونور الدين السخاري المصري بعين مدرساً بالجامع الأموي بدمشق ، والشيخ ابن الوكيل يدرّس بمصر في مشهد الحسين وبالشام في دار الحديث الأشرفية وغيرها . وكان تبادل العلماء بين مصر والشام أمراً مألوفاً في ذلك العصر ، لما كان تعيين المدرسين من حق سلطان مصر . فإنه لما مات قاضي قضاة مصر ابن دقيق العيد سنة ٧٢٢ هـ كتب السلطان الناصر المصري إلى ابن جماعة قاضي قضاة الشام يحثه وبمظنه ويحترمه ويدعوه إلى مباشرة وظيفة قاضي القضاة بمصر خاناً لابن دقيق العيد . فيجيب الشيخ دعوة السلطان ويفد إلى مصر مكرماً فتخلع عليه الخلع ويجزل له العطاء

وكان السلطان يعين كبار العلماء في المناصب الكبرى كشيخ الشيوخ والمفتي وقاضي القضاة وقاضي المسكر والمدرسين . وكانت وظيفة مدرس من أرق المناصب العلمية في ذلك العهد . ويكفي للدلالة على سمو قدرها أن التعيين فيها كان من اختصاص السلطان مباشرة ، كما يذكر المعريزي في كتابه السلوك . وكانت وظيفة المعيد تلي وظيفة المدرس في المنزلة . وعمل المعيد في القرون الوسطى هو بيئته عمل المعيد في الجامعات الحديثة . وقد عرفه الفلقشندي صاحب الأعشى ترفيهاً دقيقاً فقال : « هو ناني رتبة المدرس ، وأصل موضوعه أنه إذا أتى المدرس المدرس وانصرف أعاد المعيد للطلبة ما ألفاه ليفهموه ويحسنوه »

ولم يكن علماء القطرين في القرن الثامن بالجلوس للدرس في المساجد والمدارس ، بل كان لهم نوع من النشاط العلمي الديني فرضته عليهم بعض الظروف في ذلك العصر . فقد ظهرت بعض المذاهب المبتدعة الحائدة عن سنن الرسول وهدية والمنحرفة عن

إجماع المسلمين . وكان في خلال بعض هذه المذاهب وميض نار يوشك أن يكون لها ضرام ... فكثير الروافض بين التثار واشتد أمر الأحمدية وهي طائفة كان لها أحوال شيطانية - كما يصفهم المؤرخ ابن كثير ؛ ولهم كثير من الحيل والبهتان . وهم في نظر ابن تيمية من الدجاجة المخالفين للشريعة ؛ فنصب هذا الإمام السلفي لهم المداء ، وأخذ عليهم أقوالهم وأفعالهم ، وعقدت له بالشام ثلاثة مجالس للرد عليهم وبيان ما في طريقهم من مقبول ومردود بالكتاب والسنة .

ولم تكن تلك المجالس تعقد في المساجد الجامعة كما يتبادر إلى الذهن ، ولا في سراقات خاصة تضرب لها ، ولكنها كانت تعقد في قصر نائب السلطان بدمشق . وهي تميد إلى الذهن تلك المناظرات الدينية التي دارت بين علماء الكلام في العصر العباسي الأول .

وقد أثار تلك المجالس الدينية خصومة شديدة بين العلماء ، ولعبت فيها أحقاد القلوب دوراً عظيماً ، نفث الشيخ الأكبر على نفسه في الشام ، وقصد إلى مصر لعله يجد فيها متسعاً لآرائه وجهاده ، فخرج لوداعه من أهل الشام خالق كثير . وكان الخارجون - كما يروي ابن كثير - بين باك عليه أو حزين لفراقه أو شامت فيه أو متفرج محايد . وفي طريقه إلى مصر يمرج على غزة فيعقد له في جامعها مجلس ديني عظيم . وفي مصر يعقد له مجلس بالقلمة يحضره القضاة ورجال الدين وأكابر الدولة . فتلاحقه في مصر الأحقاد ويكثر الحاسدون فيه القول ، ويقترن عليه الكذب . ويدعى عليه في هذا المجلس ابن مخلوف المالكي المصري أنه من المشبهة الذين يقولون بأن الله فوق العرش حقيقة وأنه يتكلم بحرف وصوت . ويقف الشيخ ليدافع فيقاطعه ابن مخلوف قائلاً : ما جئنا بك لتخطب . فيسأل ابن تيمية : ومن هو الحكم في ؟ فيجيب بأنه ابن مخلوف نفسه . فيتجه ابن تيمية إلى ابن مخلوف قائلاً : كيف تحكم في ؟ وأنت خصمي ؟ وينتهي المجلس بحبس الشيخ الأكبر في برج أولاً ، ثم ينقل إلى محبس يعرف بالجلب